سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تراثنا

عُمان

قبل وبعد الإسلام

المحاضرة التي ألقاها
الأستاذ عامر بن علي عمير المرهوبي
في مهرجان العالم الاسلامي بلندن
(ابريل - يونيو ١٩٧٦)

العدد الثاني عشر
الطبعة الثالثة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م

«انه لما يثلج النفس ان نرى وللمرة الاولى في تاريخ اوروبا الحديث مجموعة من صفوة العلماء المسلمين تتولى عرض الاسلام ومبادئه وقيمه السامية على العالم الغربي عبر هذا المؤتمر الاسلامي الدولي وعلى هذا النطاق الواسع . .

ندعو الله جل جلاله ان يكلل هذا الجهد والسعي بتوفيق من لدنه ، وان يحقق الهدف من عقده والمتمثل في تقديم الاسلام في صورته الصحيحة ، وإبراز معالم حضارته للعالم الغربي» .

قابوس

تقديم

شهدت عمان قبل وبعد الاسلام حضارات عريقة شامخة ، ما تزال آثارها شواهد حية على عظمة الانسان العماني ، فقبل الاسلام نبتت على الارض العمانية اروع الحضارات العربية ، حيث اجمع المؤرخون العرب على الاشادة البالغة بالتقدم الحضاري لمدينة «صحار» قصبة عمان آنذاك فسموها «خزينة الشرق» .

وعندما أشرق فجر الاسلام على يدي الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، خف اهل عمان الى تنور الفجر الجديد ، مما حدا بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الى ان يقول : «رحم الله اهل الغبيراء «عمان» آمنوا بي ولم يروني» .

ومنذ ذلك الحين ، وعمان ماضية في خدمة الاسلام ونشره والذود عن حياضه في جميع اصقاع المعمورة ، وبالتالي فقد ساهمت عمان مساهمة ايجابية وفعالة في بناء الحضارة الاسلامية العريقة ، فألف علماؤها الكتب القيمة التي تشرح اصول العقيدة وفلسفتها ، وما يتبعها من عبادات ومعاملات ، والتي

تتناول كل صغيرة وكبيرة من قضايا العلم والمعارف السائدة في مختلف العصور ، ليس هذا فحسب ، وانما هناك ايضا مؤلفات في اللغة والطب والملاحة .

ولا يغيب عن البال ان الخليل بن احمد وابن دريد والملاح العربي احمد بن ماجد هم من اهل عمان .

ومن الادوار التي تعتز بها عمان في العصر الحديث انها استطاعت ان تلقن الشيوعية العالمية درسا لا ينسى وتحطم صخرة غرورها وغطرستها الالحادية المتهورة .

وهكذا . . فلا تكاد تلوح فرصة لخدمة الاسلام الا ويكون لعمان دور هام فيها .

وتأكيدا لهذا الدور ، وانطلاقا من توجيهات حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم ـ حفظه الله ، فقد شاركت عمان مشاركة ايجابية في مهرجان العالم الاسلامي ، الذي اقيم في الفترة من ابريل الى يونيو ١٩٧٦ بالعاصمة البريطانية ، وحضره اقطاب العلم والفكر في العالم الاسلامي .

وقد وجه صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم رسالة الى المؤتمر الذي عقد بهذه المناسبة ، حيا فيها المؤتمرين ، وبارك خطواتهم لخدمة الاسلام ، مما كان له اطيب الاثر في نفوسهم .

وألقى الاستاذ عامر علي عمير المرهوبي في هذا المؤتمر محاضرة قيمة تناول فيها مختلف الادوار والاحداث التاريخية التي شهدتها عمان .

نص المحاضرة

التي ألقاها الأستاذ عامر بن علي عمير المرهوبي
في مهرجان العالم الاسلامي بلندن
ابـــريل - يونيـو ١٩٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

حتى وقت قريب لم يكن العالم يعرف الا النزر اليسير عن عمان ، ويعزو بعض المؤلفين عزلة عمان الى اسباب ندرك الآن انها بغير اساس ، كما سنرى من خلال محاضرتنا هذه . .

اما اليوم فقد استردت عمان مكانتها بين دول العالم ، واخذت تخطو خطوات واسعة نحو التقدم وذلك بفضل القيادة المستنيرة لصاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم . وهي اليوم تركز جهودها وتعبىء طاقاتها لبناء مستقبلها على اسس متينة من التعاليم الاسلامية التي تنتمي اليها ، مستعينة في ذلك بالتكنولوجيا الحديثة ومتمسكة في الوقت نفسه بذاتيتها وبتراثها الاسلامي والعربي . . وهي اذ تمضي قدما الى المستقبل فانها لا

تنسى ماضيها العريق ، تغترف منه معاني العزة والتطلع الى المستقبل بثقة لا حد لها .

ان لعمان تاريخا عريقا يضرب بجذوره الى ما قبل الاسلام بعدة قرون . ولقد اعتنق اهل عمان هذا الدين طواعية وبمحض رغبتهم ، وكان لهذا احسن الاثر في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام . . ولقد ساهم الاسلام في اثراء التراث العماني ، كما فتح امامها آفاقا واسعة لوضع اسس متينة لحياتها الروحية تنبع من تعاليم الاسلام السمحاء التي بشر بها محمد صلى الله عليه وسلم .

والآن استميحكم العذر في ان استهل هذه المحاضرة بعرض سريع لتاريخ عمان قبل الاسلام . وهو جزء يسير مما توفر لنا من بعض المصادر القليلة التي جمعناها من هنا وهناك ، آملين في ان نتمكن من اكتشاف المزيد من الادلة والشواهد عن هذا التاريخ استنادا الى عمليات البحث والتنقيب الجارية الآن .

من الحقائق المتفق عليها ان سكان عمان الاوائل اقاموا في قرى منذ العصر الالفي الرابع قبل الميلاد ، اي نحو ستة آلاف عام قبل الآن ، كما كشفت الحفريات الاثرية عن وجود اوان فخارية تم العثور عليها في بعض مناطق عمان ، الامر الذي يدل على ان عمان كانت لها اتصالات ببعض الاقطار المجاورة ، وان موانئها وقراها كانت ملتقى لثقافات وفدت اليها من اقطار اخرى قريبة منها كالعراق وبلدان الخليج وبلوشستان وفارس

وتركستان . ويروي لنا علماء الآثار ان اهل عمان كانوا يستعملون هذه الاواني .

كما اكتشفت مقابر يرجع تاريخها الى العصور الغابرة ، وقد تحدثت البعثة الاثرية الدانماركية التي جاءت الى عمان عام ١٩٧٢م ، وهي واحدة من عدة بعثات ، فقالت : لقد تم اكتشاف عدد من المقابر مماثلة لمقابر ام النار ، الى جانب عدد كبير آخر يعود تاريخها الى العصر الحديدي .

كما اكتشفت بمنطقة عبري مجموعات من المقابر لها دلالتها الهامة ، وبالتالي فلا وجه للغرابة ان دلت هذه المقابر على وجود مراحل تاريخية عديدة بدءا بمقابر جمدت نصر للفترة الالفية الرابعة قبل الميلاد ، مرورا بمقابر ام النار للفترة الالفية الثالثة ، انتهاء بالعصر الحديدي للفترة الالفية الاولى .

ومما يثير الاهتمام بوجه خاص ان سكان المستوطنات القديمة في عمان قد وصلوا الى درجة كبيرة من الرقي ، ولسوف نطلع على نماذج اكثر وضوحا لهذا التطور من خلال الابحاث الجارية في هذا الشأن .

غير ان ثمة من القرائن ما يحمل على الاعتقاد بأن البلاد التي كانت تسمى مجان انما هي عمان بالذات ، واذا صح هذا الاعتقاد كما ترجح هذه الآراء فان عمان ، او مجان كما كانت تسمى ، قد دخلت في علاقات تجارية واسعة مع الحضارات القائمة آنئذ كالعراق ووادي الاندوس .

وفي كتاب «الامارات المتصالحة» يشير مؤلفه دونالد هولي الى ان ملوك «اور» الذين عاشوا قبل الميلاد بألفي عام كانوا يتبادلون التجارة مع عمان ، ويصدرون اليها الشعير والملابس مقابل النحاس ، كذلك يشير هولي الى تجارة العاج والبامبو والاحجار الكريمة واوكسيد الحديد .

وقد وردت اشارة الى ازدهار مثل هذه التجارة في اللوحات التي اكتشفت في مدينة بابل بالعراق ، وكلها تؤكد ان السفن التجارية العمانية كانت ترتاد موانىء «اور» محملة بمختلف السلع والمنتجات ، وكان النحاس من اهم الصادرات العمانية ، وكان يصدر في مقابل الفضة وزيت الطعام والمنسوجات والمصنوعات الجلدية .

ولقد ورد في تقرير بعثة من علماء الآثار التابعين لجامعة «هارفارد» بعد عمليات مسح قامت بها في بعض ارجاء عمان عام ١٩٧٣ : ان هناك من الدلائل ما يشير الى وجود عمليات لصهر النحاس في عمان في اربع من مناطق التنقيب هي سمد والباطنة والظاهرة وابرا .

كما ارتبط اسم عمان بتصدير كميات من النحاس الى بلاده ما بين النهرين .

والمناجم الاربعة التي اكتشفتها بعثة هارفارد تقدم اول دليل حقيقي على ان عمان من اوائل البلدان التي كانت تستخرج النحاس .

وتستطرد البعثة فتقول ان هناك ادلة كثيرة تشهد بأن العمانيين كانوا يستخدمون وسائل ري متطورة في تلك الفترة من التاريخ ، كاقامة السدود الواطئة لحصر المياه الجارية في منطقة سمد ، واخصاب الاراضي الزراعية وذلك عن طريق غمرها بالطمي .

كما اكتشفت البعثة بقايا بيوت سكنية كبيرة مقامة فوق اساسات من الاحجار والتحصينات القوية .

وبوجه عام فان كافة الادلة المتوفرة بهذا الشأن تؤكد ما سبق ان ذكرته من ان عمان كانت مجتمعا متطورا في منطقة الخليج خلال العصر الالفي الثالث قبل الميلاد ، وكان يقوم بفلاحة الارض على احدث الاساليب ، كما كان ينتج الادوات المعدنية للاستهلاك المحلي وللتصدير ايضا .

كذلك فقد سجلت بعثة «هارفارد» وجود سبع مستوطنات اخرى يعود تاريخها الى العصر الالفي الاول قبل الميلاد ، تضم مبان من الحجر ، وعثر في تلك المباني على اوان وادوات فخارية ، مما يؤيد ان عمان كانت تلعب دورا هاما بالنسبة للمجتمعات الاخرى في الخليج .

واذا انتقلنا الى مرحلة اقرب من التاريخ نجد ان اللبان يأتي في مقدمة صادرات الجنوب العربي في العصر القديم ، وكان يصل الى الاقطار البعيدة كروما حيث كانت تجارته رائجة هناك .

ولقد بلغت شهرة اللبان العماني في هذه الاصقاع حدا دعا الكاتب الروماني بليني الى ان يصف الجنوب العربي القديم بأنه

اغنى بلدان العالم .

وفي الوقت الذي كتب بليني رأيه هذا كان اللبان العماني يصدر من بلدة سمهرام في ظفار وكانت تعرف عند الاغريق باسم موشكا .

ولقد وردت اول اشارة لهذه التسمية في كتاب The Periplus Of the Erythraean Sea لمؤلف مجهول يحتمل ان يكون اغريقيا ، وذلك في نحو القرن الاول بعد الميلاد ، فقد اشار اليه كميناء بحري أقيم لتصدير منتجات اللبان .

وكانت سفن البلاد الاخرى تتعامل مع رجال الحاشية الملكية على أساس مقايضة اللبان بمنتجات الحنطة والسمسم والمنسوجات .

ويبدو أن هذا الميناء يقع في منطقة خور روي لوجود أدلة أثرية قوية على ذلك . وقد جاء في مقال لعالمة الآثار الفرنسية الشهيرة بيرين : «وبالتالي فان موشكا هي بالتأكيد في خور ظفار الآن حيث توجد منطقة خور روي ، غير انه لابد من التأكد قبل ذلك مما إذا كان الميناء المشار اليه هو ميناء موشكا بالذات ، او أنه أحد المستوطنات الأقل أهمية» .

ومن الجدير بالذكر أن اللبان لا يزال يزرع حتى اليوم بكميات وفيرة في جبال ظفار ، وأن علماء الآثار يواصلون أعمالهم في منطقة خور روي لمعرفة طبيعة التاريخ القديم لهذه المنطقة . فلا تزال هذه المنطقة مليئة بالأنقاض ، كما ان الكتابات التي عثر

عليها هناك تلقي المزيد من الضوء على جانب آخر من التراث العماني .

والنقطة التي تثير الاهتمام هي محاولة التوصل الى معرفة تاريخ سمهرام التي كان يعتقد بأن تاريخها يعود الى القرن الأول بعد الميلاد بينما يسود الاعتقاد الآن بأن هذا التاريخ يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد .

اما وقد سردت لكم في ايجاز تاريخ عمان القديم فاني اجد نفسي مدفوعا الى أن أنتقل بكم الى الفترة الأقرب من تاريخ هذه البلاد وبذلك نصل الى لب الموضوع وأعني به تاريخ عمان العربي الاسلامي .

انني اخشى ان لا تكون لدينا ادلة تاريخية متسلسلة في هذا الصدد نسترشد بها في تحديد قسمات تراث اهل عمان قبل وصول الأزد اليها . . ويقول دونالد هولي في كتابه «الامارات المتصالحة» ان عمان استهدفت لموجات متعاقبة من الهجرة من الجنوب . غير ان الأزد بزعامة مالك بن فهم هاجروا اليها في القرن الثاني قبل الميلاد وان كان الدليل ينقصنا لاثبات ذلك .

ومن هنا فلا بد من الاعتماد على المؤرخين العمانيين وحدهم وعلى الاخص على اشهر هؤلاء المؤرخين ، وهما سرحان بن سعيد بن سرحان ، وعبدالله بن حميد السالمي ، وقد جاء في ترجمة انجليزية الحكاية التي رواها سرحان عن كيفية انتقال الازد بقيادة مالك بن فهم من اليمن الى عمان ، وقد وردت في كتاب

مستر هولي .

وتتفق الصيغة التي اوردها السالمي عن غزو مالك بن فهم لعمان مع النقاط الرئيسية في رواية سرحان فيما عدا ان رواية السالمي لهذه الحكاية اكثر تفصيلا وايضاحا ، او بالاحرى اكثر ايفاء لبطولة الازد ، خاصة وأن السالمي قد اعتمد في روايته على عدد من المؤرخين العرب ، فهو يحدد تاريخ هذا الغزو بألفي سنة قبل الاسلام ، كما يعزي اسباب هجرة الازد الى عمان الى انهيار سد مأرب في اليمن الذي كان مصدر خير تلك البلاد ورخائها .

وهذا يزيد من صعوبة إثبات تاريخ هذا الغزو من حيث ان فترة الالفي سنة قبل الاسلام تطابق القرن الخامس عشر قبل الميلاد بينما الاعتقاد السائد ان انهيار السد قد تم خلال القرن الاول او الثاني بعد الميلاد .

وعلى أية حال فاذا افترضنا ان هذه الرواية عن بطولات الازد مبالغ فيها ، فان هناك اجماعا في الرأي على ان الازد احتلوا عمان وانهم كانوا اول المجموعات العربية الحديثة التي اقامت حكمها في البلاد بزعامة مالك بن فهم .

وهناك مصدر عربي آخر يرجح ان بعض القبائل العربية كقبيلة عاد وثمود وطسم وجديس قد استوطنت عمان قبل ان يحتلها الفرس بزمن طويل .

وقد أعقب احتلال مالك لعمان فترة من الهدوء والاستقرار

تخللتها جهود مركزة لتثبيت دعائم الحكم وإنشاء جهاز حكومي منظم .

وقد تلا هذا وصول موجات اثر موجات من قبائل الازد . وهؤلاء هم الذين اطلقوا على هذه البلاد اسم عمان تيمنا باسم احد الاودية في اليمن .

وعلى حد قول السالمي فقد أخذ الازد يتوافدون على عمان حتى ملأوا كل شبر فيها مكونين بذلك وحدة وطنية متماسكة بزعامة قائدهم مالك بن فهم .

واذا نحينا جانبا عنصر المغالاة في وصف بطولات الازد في ساحة الحروب ، فإن المؤرخين العرب لا يراودهم اي شك في صدق هذه الروايات .

ويقول مايلز في كتاب «بلدان وقبائل الخليج» اننا لو اغضضنا الطرف عن بعض المبالغة التي وردت في كتاب «كشف الغمة» لسرحان بن سعيد ، فان هذه الروايات قد اعتمدت على القصص المأثورة عن العرب ، وبالتالي فيمكن الاعتماد عليها» .

ان اعترافا كهذا من كاتب ينتمي الى الغرب يضفي وزنا كبيرا على كتابات المؤرخين العرب امثال سرحان بن سعيد الذي بذل ونخبة من أمثاله جهودا مضنية لتسجيل تاريخ هذه الامة .

اما فيما يختص بعرب عمان ، فقد جرى العرف على ارجاع نسبهم الى قبيلة الازد العربية بل ان كتب التاريخ العماني تتضمن اسماء القبائل التي هاجرت الى عمان وأسماء رجالها ورؤسائها ،

كما ان هذه العادة لا تزال متبعة الى يومنا هذا في عمان .

ولقد أشار السالمي في مؤلفه «تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان» الى اسماء رؤساء القبائل العمانية التي نزحت الى عمان بعد وصول مالك بن فهم اليها ، ممن لا تزال ترتبط بصلة نسب الى القبائل العمانية الراهنة ، ولعبت دورا هاما في تاريخ هذه البلاد .

ويهتم العمانيون ـ كغيرهم من العرب ـ بأنسابهم القبلية اهتماما كبيرا ، ويحتفظ كثير منهم بشجرة العائلة التي ينتمي إليها ويتوارثها الخلف عن السلف .

ولقد استتبع هجرة قبائل الأزد إلى عمان وصول مجموعات قبلية أخرى من أصل عدنان نزحت من الشمال .

ومن المعروف أن القبائل العمانية تتفرع كلها من قبيلتين عربيتين رئيسيتين إحداهما قبيلة اليمانيين الذين هاجروا الى عمان بصحبة مالك بن فهم أو بعده ، والاخرى قبيلة العدنانيين الذين نزحوا الى عمان من شمال اليمن وذلك بعد هجرة الأزد اليها .

ويسجل السالمي قائمة بهذه المجموعات القبلية مبينا أسماء زعمائها .

وقد لا تسمح لي هذه المحاضرة بأن استرسل في الحديث عن هذا الموضوع . وكل ما أود ان أقوله هو ان هناك عددا من المؤلفات التاريخية تلقي الضوء على هذه الحقبة من تاريخ عمان ، وعلى موضوع الانساب القبلية ، وانه ليسعدني أن أحيل المهتمين بهذا الموضوع الى الترجمة الإنجليزية لكتاب سرحان بن سعيد

«كشف الغمة» ، وهي بعنوان «تاريخ عمان» ، ويقرر مايلز أن النص الأصلي لهذا الكتاب قد تم تأليفه في مدينة أزكي الواقعة في الداخلية ، وقد عثر عليه الكولونيل «أي . سي . روس» في عام ١٧٢٨ ميلادية ، وطبعت ترجمته الانجليزية في كلكتا بالهند ، وظهر في مجلة : Journal of Bengal Asiatic Society .

ويقال ان مالك بن فهم قد امتد حكمه زهاء سبعين عاما ، وانه عاش حتى بلغ ١٢٠ سنة من العمر ، وقد جاءت وفاته غيلة على يد أصغر أبنائه وأحبهم الى قلبه «سليمة» الذي هرب من البلاد بعد الحادث الى كرمان .

ولا يوجد دليل على الأحداث التي شهدتها عمان في أعقاب وفاة مالك ، وان كان من المرجح أن أبناءه ظلوا يتناوبون الحكم الى ان انتقل منهم الى أسرة أخرى من الحكام ، هي أسرة بني شمس ، وهي فرع من قبيلة الأزد التي وفدت إلى عمان بعد وصول مالك اليها وكان يتزعمها معولة بن شمس .

ولا تتحدث السجلات التاريخية عن الكيفية التي تم بها انتقال الحكم الى أسرة بني شمس ، وكل ما نعرفه عن الموضوع ما ورد على لسان المؤرخ العماني السالمي الذي يقول : «إن أول ملك يتولى الحكم من هذه القبيلة هو عبدالعز بن معولة بن شمس ، ويصفه بأنه كان حاكما قويا ونشطا ، امتد حكمه الى أبعد من اليمامة والبحرين .

على أن كتب التاريخ تتحدث عن أسرة بني شمس فتقول انها

استمرت تحكم البلاد حتى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يحكمها يومئذ جيفر وعبد إبنا الجلندى بن المستكبر .

ولا نعرف على وجه الدقة ما اذا كان هذا الحاكم قد أسلم مع من أسلم أم لا ، وان كانت بعض الروايات ترجح انه توفي قبل دخول العمانيين الى الاسلام .

وعلى أية حال فان العمانيين اعتنقوا الاسلام خلال حكم الاميرين جيفر وعبد ابني الجلندى ، وهذا يميط اللثام عن كيفية دخول العمانيين الى الاسلام .

وقد نلتزم هنا بالاعتماد على المؤرخين العرب الذين تطرقوا الى هذا التاريخ بكثير من الإنصاف والإدراك رغم اختلاف التفسيرات والتأويلات ، ومن هنا يمكننا ان نثق في أقوالهم بشكل عام .

وهناك اكثر من رواية عن كيفية دخول العمانيين الى الاسلام ، اذ يقال ان مازن بن غضوبة هو اول من اعتنق الاسلام ، وكان من سكان سمايل في الجزء الداخلي من البلاد .

وتقول الرواية ان مازن بعد ان علم بأمر الدعوة الاسلامية سافر الى المدينة وأسلم على يدي الرسول صلاة الله وسلامه عليه ، ثم تبعه عدد آخر من العمانيين .

كذلك من المحتمل ان يكون بعض العمانيين قد أسلم قبل وصول عمرو بن العاص مبعوثا من النبي صلى الله عليه وسلم الى عمان ، وكان على حكم البلاد يومئذ عبد وجيفر ابنا الجلندى

اللذان خلفا أباهما على الحكم .

وقبل أن نأتي على ذكر قصة عمرو بن العاص يجدر بنا أن نتعرف على الوضع العام في عمان قبيل دخول الاسلام ، وتذكر كتب التاريخ ان قبائل من الأزد وعدنان بزعامة الاميرين عبد وجيفر كانت تحكم البلاد في ذلك الوقت ، وانه وفقا لبنود الهدنة القائمة بين العمانيين والفرس يومئذ كان الفرس يحتفظون بحامية عسكرية لهم قوامها أربعة آلاف رجل ، وكانت تعسكر في حمستجرد قرب صحار كما كانت هناك أقليات من المسيحيين واليهود ، وربما كان السواد الأعظم من سكان عمان يعبدون الاصنام .

وكما ورد في التاريخ الاسلامي فإن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم قد اوفد عمرو بن العاص رسولا الى عمان بكتاب منه الى حاكميها عبد وجيفر ، وذلك في العام الهجري التاسع ، يدعوهما الى الاسلام ويروي السالمي عن الوافدين نص خطاب الرسول الى اهل عمان :-

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابني الجلندى - السلام على من اتبع الهدى . .

أما بعد فاني ادعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فاني رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وانكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما ، وإن أبيتما فإن

ملككما زائل عنكما وخيلي تطأ ساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما» .

وكان الكتاب يحمل ختم النبوة الذي يقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

وربما كان هذا ما دفع بعض المناهضين للاسلام ، الى اتهام العمانيين بأنهم لم يعتنقوا الاسلام من منطلق الايمان به ، وإنما خوفا منه وبدافع المصلحة والضرورة ، وانه بعد ان رأى العمانيون كيف انتصر محمد صلى الله عليه وسلم على اعتداء بني قومه عليه وعلى رسالته النبوية ، خشوا من زحف قوات المسلمين على بلادهم ، كما انهم وجدوا في جيوش المسلمين سندا لهم في مقاومتهم للاحتلال الفارسي للبلاد . على أن هذه مجرد تكهنات ليس لها ما يبررها .

والحقيقة هي ان العمانيين بعد التشاور بين زعماء البلاد وكبارها وعلى الأخص بعد التحقق من هوية الرسالة النبوية والتعاليم التي كان يبشر بها هذا الدين ، اتخذوا بالاشتراك مع كافة الزعماء قرارا جماعيا بقبول الاسلام دينا حنيفا والالتزام بتعاليمه السمحاء .

وبالنسبة للحامية الفارسية ، فانها عندما رفضت الدخول في الاسلام ، قام الأزد أنفسهم بطردهم من البلاد ، وبدون أي مساعدة عسكرية من أية جهة أخرى .

وعلى ذلك فلقد جاء الاسلام الى عمان ليبقى وينتشر . ولما

كان جيفر وعبد نفساهما قد آمنا به ، فانهما ناشدا القبائل أن تحذو حذوهما

ولا بد أن نسلم بأنه كان بديهيا أن يستغرق تحول عمان كلها الى الاسلام بعض الوقت ، وأن تندثر بصعوبة بعض التقاليد القائمة من قبل مجيء الاسلام .

ولم يكن ذلك ليتحقق الا بعد قدر كبير من شرح تعاليم الاسلام ، ولذلك عرف عن العمانيين فيما بعد تمسكهم الشديد بالعقيدة الاسلامية والمشاركة في نشرها .

وبدأ الأتباع الجدد للإسلام يتشربون تعاليم الدين الجديد من المبعوث الذي أوفد اليهم لدعوتهم اليه ، وهو عمرو بن العاص الذي أقام في عمان حتى غادرها عند سماعه بوفاة النبي .

وإذا افترضنا أن تاريخ وصول عمرو إلى عمان ـ في العام التاسع من الهجرة ـ كان صحيحا ، فإن معنى ذلك أنه بقي في عمان لفترة لا تقل عن عامين ، كأخ مسلم يلقى الترحيب ، وكشخصية لها احترامها الكبير ، وخلال هذه الفترة ، أوصل إلى شعب عمان بقدر ما يستطيع تعاليم عقيدتهم الجديدة .

وعندما اضطرته وفاة النبي الى الرحيل ، صحبه عبد وعدد من كبار شخصيات عمان ، ومجموعة من رجال الأزد .

وأمام المهاجرين والأنصار ألقى سيدنا أبوبكر كلمة ترحيب بالوفد العماني قال فيها : يا أهل عمان ، إنكم أسلمتم طوعا ، ولم يطأ رسول الله ساحتكم بخف ولا حافر ، ولا جشمتموه

ما جشمه غيركم من العرب بفرقة ولا تشتت شمل ، فجمع الله شملكم على خير ، ثم بعث اليكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فأجبتموه اذ دعاكم على بعد داركم وأطعتموه اذ امركم على كثرة عددكم ، فأي فضل أبر من فضلكم وأي فعل أشرف من فعلكم . كفاكم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفا إلى يوم الميعاد . ثم أقام فيكم عمرو ما أقام مكرما ، ورحل عنكم إذ رحل مسلما . وقد منّ الله عليكم باسلام عبد وجيفر ابني الجلندى ، وأعزكم الله به وأعزه بكم . وكنتم على خير حال حتى أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاما حمدناكم فيه ومحصتم بالنصيحة وشاركتم بالنفس والمال فيثبت الله ألسنتكم ويهدي قلوبكم .

ولقد كانت العلاقات بين عمان والمدينة على أفضل حال في عهد الخليفة أبي بكر ، باستثناء حادثة واحدة كانت وما تزال محل جدل ، وأعني بذلك معركة دبا ـ وهي بلدة قريبة من صحار ـ شمال غربي مسقط .

فلدينا رواية عن معركة عنيفة دارت في هذه البلدة بين قوات المسلمين بقيادة الأميرين عبد وجيفر ، وبين قوات «المرتدين» ـ الذين ارتدوا عن الاسلام بعد وفاة النبي ، في عهد أبي بكر بقيادة شخص يدعى «ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي» ، وهو الذي نادى بنفسه نبيا ، طبقا لهذه الرواية .

ومصدر هذه الرواية هو المؤرخ العربي الشهير ابن الأثير ، الذي نقل «مايلز» عنه بإفاضة ، وليس بمجرد عبارات أو تلميحات قليلة .

وعلى سبيل المثال فان مايلز يقول ـ وأنا هنا أنقل عنه ـ رغم ان ممثلي الغالبية العظمى من قبائل عمان الذين اجتمعوا في نزوى ، قد قرروا اطاعة النبي الجديد والتمسك بدعوته ، فإن بعض القبائل كانت في عزلة تامة عن الحركة الجديدة . ومن بين قبائل الأزد الذين كان متوقعا ان يتبعوا قيادة رؤسائهم القبليين ، ظل بعضهم متمسكا بعقائدهم الوثنية ، وظهر من بينهم قائد جديد طامع ومغامر يقود معارضتهم لابني الجلندى .

ولقد كان هذا القائد هو ذو التاج لقيط بن مالك ـ أحد شيوخ الأزد ـ ولكنه من قبيلة غير معروفة ، وقد عارض قبول أتباعه للتعاليم الجديدة التي أتى بها عمرو بن العاص .

ويستطرد قائلا : «بعد أقل من عامين من عودة الوفد (يعني الوفد العماني الى النبي) ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم المصلح العظيم والداعي إلى التوحيد ، قد مرض ومات في العام الحادي عشر للهجرة . وفي ذلك الوقت كانت كل القبائل والأراضي العربية تحت طاعته ، ولكن مد الانتصار لم يكن قد بدأ يتدفق خارج حدود الجزيرة العربية .

كانت وفاة النبي صدمة للمؤمنين بالوحي الالهي ، كادت تهز اركان الدين الجديد ، وانفجر التمرد في الحال في كل المناطق

النائية من الجزيرة العربية ، وكذلك في أماكن قريبة من المدينة .

وثار التمرد في عمان مثلما حدث في بقية الأجزاء ، وسارع عمرو بن العاص بالعودة الى الحجاز للإبلاغ عما حدث .

ويقول مايلز هذا القول في موضع ، ولكنه يعترف في موضع آخر بأن «الأميرين ولدي الجلندى ظلا متمسكين بموقفهما ، مع تشبث كثير من القبائل بشدة باسلامها» .

وقبل ان نستطرد ، يجب ان نحاول تحليل الموقف قليلا .

فان القول بأن وفاة النبي كانت صدمة للمؤمنين بالوحي الالهي لا يمكن ان يمر بدون تفنيد .

ذلك أن المؤمنين الصادقين كانوا يعلمون ويسلمون من البداية بأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم عرضة للموت ، وأنه سيرحل عن هذا العالم في يوم من الأيام .

وهذا امر يتفق مع تعاليم القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾ .

وهذه الآية ذاتها هي التي استشهد بها سيدنا أبوبكر وهو يذكر مسلمي المدينة بأن وفاة النبي ليست نهاية الاسلام . كما قال لهم بعبارات لا لبس فيها : «من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت» .

ومن المؤكد ان خبر وفاة النبي كان خبرا محزنا للمؤمنين ،

ولكنه لم يكن له وقع الصدمة بالطريقة التي ذكرها بها مايلز .

وهؤلاء الذين انهار إيمانهم بعد وفاة النبي ، لا بد وأن وراءهم دوافع اخرى .

اما الحديث عن التمرد ضد الإسلام ، والذي افترض انه يقصد به انهيار العقيدة بين المرتدين ، فقد أوردها بطريقة توحي بأن كل العمانيين قد ارتدوا ، بينما هو نفسه يعترف بأن عبد وجيفر ظلا على إيمانهما القوي ، وأن كثيرا من القبائل تمسكت بشدة بالإسلام . . أي تناقض في العبارات هذا ؟!

إن عمان كدولة تحت حكم أميريها (عبد وجيفر) قد تمسكت بشدة بالاسلام في وقت حرج ، ولو كان إيمان العمانيين بالدين الجديد موضع جدل ، لأصبح في إمكانهم التحول الى مرتدين وقطع علاقاتهم مع المدينة ، ومواجهة النتائج ، ولكن ذلك ما لم يفعلوه ، لأنهم قبلوا الإسلام مختارين وباقتناع كامل .

والشخص الذي يفترض ـ طبقا لرواية ابن الأثير ـ انه قاد معركة دبا ضد المسلمين مشكوك في أصل نسبه . بل إن مايلز نفسه يقول إن قبيلته غير معروفة ، رغم انه يزعم وجود صلات له بالأزد . ثم ان اسمه غير شائع بين القبائل العمانية ، ويعترف مايلز بأنه لم يعتنق الإسلام أبدا . . وبالتالي لا يمكن أن يكون مرتدا .

وبعبارة أخرى ـ لا يمكن أن يقال عنه انه تخلى عن عقيدة لم يكن قد اعتنقها من قبل . أما عن معركة دبا التي قيل إنها وقعت

بين مسلمين ومرتدين ، فأمر مشكوك فيه ، ولم يكن مقبولا من جانب المؤرخين العمانيين .

والمؤرخ السالمي يدحض بشكل قاطع رواية ذي التاج ، ويستند إلى مصدرين وثيقين ، ليوضح حقيقة ما حدث في دبا ، طبقا لما ذكره العوتبي في كتابه الأنساب ، فإن حادثة دبا وقعت في نهاية خلافة أبي بكر تقريبا ، عندما أرسل حذيفة بن محصين الغلفاني إلى عمان لجمع الصدقة .

وفي دبا ، طلب جامعو الصدقة من نسل الحارث بن مالك بن فهم دفع الصدقة ، وعندما اقتربوا من امرأة طالبين منها شاة مسنة عرضت ان تقدم عتودا او عناقا بدلا من الشاة . ولكنهم رفضوا وأخذوا ما أرادوا . وصرخت المرأة قائلة «يا آل مالك . .» وعندما سمعها حذيفة اعتبرها دعوة جاهلية ، وخشي ان يكون هؤلاء الناس قد تركوا الإسلام ، فأغار عليهم وأخذ منهم بعض السبايا معه إلى المدينة .

وتستطرد هذه الرواية قائلة بعد هذه الحادثة ، قام وفد مكون من سبيعة بن عراك الصيلمي ، والمعلا بن سعد الخمامي ، والحارث بن كلثوم الحديدي ، بالسفر الى المدينة ليشرحوا لسيدنا ابي بكر حقيقة ما حدث ، وليؤكدوا له أن اهل دبا لم يتخلوا عن عقيدتهم ، وأنهم لم يمنعوا الصدقة ، بل قد عجل عليهم حذيفة ، واستطردوا قائلين : وكففنا أيدينا الى أن اتيناك . وبعد بعض المداولات أمر عمر برد السبايا الى عمان .

وطبقا لرواية الشيخ خلف بن زياد البحراني ، فإن سيدنا أبا بكر أوفد البعض إلى عمان لجمع الصدقة ، وأن العمانيين جميعا أعطوا الصدقة باستثناء امرأة من أهل دبا شاجرت بعض جامعي الصدقة ، وزعمت انهم أخذوا كل ما كان مقررا ان تدفعه لهم . ولكنهم تمسكوا بأن عليها ان تدفع اكثر . فتنازعا في ذلك فقرعها أحدهم قرعة ، فاستغاثت ببعض أهلها ، فأغاثوها ، وتواقعوا مع الذي قرعها ومن معه ، وتنادوا عند ذلك يا «آل بني فلان» .

قال الشيخ خلف وكانت دعوة جاهلية ، ويقال ان من دعا بها حل دمه حين يدعو بها أو يتوب . فاقتتلوا ما شاء الله وظهر جامعو الصدقة عليهم ، وجاء حذيفة الغلفاني وكان ولي ذلك فسبى أهل دبا ، وفيهم ذرية من لم يقاتلهم من النساء والولدان ، وذرية من كان قد غاب او كان قد مات وهو مسلم ونساؤه .

وهؤلاء الناس لم يحدث أن تخلوا عن الاسلام قط ، كما لم يمتنعوا عن دفع الصدقة ، وتقول هذه الرواية أن حذيفة سبى كل أهل دبا ، كما تردد أيضا أن سيدنا عمر هو الذي أمر باطلاق سراح السبايا ، وأنه أعطى كل واحد منهم تعويضا قدره ثلاثمائة درهم ، ويبدو أن هناك دلالات قوية على أن حذيفة ظل بعد ذلك يحكم عمان ممثلا للخليفة .

وأثناء فترة خلافة عمر وضعت عمان تحت حكم عثمان بن العاص الثقفي ، الذي كان مقره في البحرين .

وطوال هذا الوقت كان يحكم عمان عبد وجيفر ، اللذان كانت علاقتهما على أفضل ما يكون مع ابي بكر وعمر ، وتمسك الاثنان بالولاء التام لكل من الخليفة ابي بكر والخليفة عمر ، وأرسلا الصدقة السنوية بلا أي نكوص .

ويمكن وصف عهد عبد وجيفر بأنه عهد سلام ، ورخاء ، وتمسك بأهداب الدين ، وأنه شهد بداية رعاية النهضة الأدبية .

وليس هناك سجل عن وقت وفاة عبد ، ولكن يبدو انه مات قبل جيفر ، لأنه عندما مات جيفر في نزوى في العام الثلاثين للهجرة فان عباد ـ ابن اخيه ـ هو الذي تولى الحكم ، أثناء خلافة عثمان .

وبالرجوع الى كتاب الشيخ سالم بن سليمان الحارثي «العقود الفضية في أصول الأباضية» فإنه يحدثنا عن أنه وفقا لما ذكره المؤرخون العمانيون ، فإن أبا بكر ترك جيفر وأخاه يحكمان عمان ، وجعل لهما أخذ الصدقات من أهلها وحملها اليه ، ولم يزالا في عمان متقدمين إلى أن ماتا . ثم خلفهما عباد بن الجلندى (ربما هو في الحقيقة حفيده) خلال فترة خلافة عثمان وعلي . وعندما دب الخلاف ، وانتقل الأمر إلى يد معاوية ، فإن عمان لم تخضع لحكم معاوية الى أن جاء عبدالملك بن مروان إلى الحكم واستعمل الحجاج على العراق ، وكان سليمان وسعيد ولدا عباد يحكمان عمان ، واحتل الأمويون عمان .

واستمر هذا الاحتلال حتى مجيء حكم العباسيين عندما تولى

عبدالله بن محمد السفاح السلطة ، وأصبح أول حاكم عباسي ، وقد عين عمه سليمان بن علي واليا على البصرة مع تبعية البحرين وعمان لها . وقام سليمان بدوره بتعيين جناح بن عباد الهنائي كنائب له على عمان .

وكانت هذه الفترة بالنسبة لعمان فترة نزاع وخلافات بالمقارنة بفترة الهدوء والرخاء ، والازدهار الثقافي ، وهي الفترة التي سبقت احتلال الحجاج للبلاد . . وكانت فترة تناقضات نتجت عن معركة صفين بين قوات علي ومعاوية ، والتي أدت إلى خلافات مذهبية ، وإلى خسائر مؤسفة في الأرواح .

ومع أن موضوع هذه التناقضات ليس واردا في صلب هذه المحاضرة التي لا تهدف إلى الخوض في جدل مذهبي ، إلا أنه من الضروري أن نستعرض الموقف كما تأثرت به عمان من وجهة النظر الدينية .

ونكون قد التزمنا الصواب بعدم توريط أنفسنا في قصص عن المعارك والانتصارات ، حيث لا اعتقد أننا جئنا هنا لكي نفعل ذلك ، وكل ما أرغب في محاولة القيام به ، هو أن أوضح كيف خرجت عمان من هذه الخلافات بوحدة مذهبية كانت عرضة لتحريفات كثيرة .

فبعد معركة نهروان تشتت الخوارج ، ولا يوجد أي دليل يشير الى أن أي قوات عمانية قد اشتركت في هذه المعركة . . ويفترض أن بعضهم قد هرب إلى عمان .

أما كيف جاء ارتباط الأباضيين العمانيين بالخوارج ، فهذا ما يحتاج إلى تفسير ، كما يلزم تحديد المعنى التام لكلمة خوارج ، كذلك يجب دراسة وجهة النظر الأباضية في هذا الأمر دراسة موضوعية ، وبكل تجرد .

ذلك أن إصدار حكم على أناس بصورة عاطفية ، وتوجيه أصبع الاتهام إليهم بدون الرجوع إلى الحقائق ، هو قول لا يؤخذ به ، واتهامهم بالهرطقة ، هو اتهام لا يمكن اغتفاره .

ومما يؤسف له أن كاتبا له مكانة مايلز ، يلجأ إلى وصف الأباضيين بالهراطقة بدون أي أساس ، واني لأتساءل عما إذا كان يدرك بالفعل مضامين هذه الكلمة التي يعرف هو معناها كما هو وارد في قاموس اكسفورد «التعارض مع العقيدة السائدة او التقليدية» .

وعلى ذلك ، فإن مايلز عندما يستخدم هذه الكلمة مشيرا الى الأباضيين،لا بد وأنه كان يعني أنهم يحملون أفكارا متعارضة مع العقيدة الاسلامية .

وكيف يمكن أن يكون الأباضيون هراطقة في حين أن مذهبهم قائم على القرآن والسنة ، والإجماع والقياس . ورغم وجود بعض الخلافات في التفسير بينهم وبين المذاهب الأخرى ، وهو أمر شائع عند المسلمين وعند غيرهم من أصحاب الديانات ، ورغم أنهم كانوا رافضين للسلطة المركزية للخلفاء الأمويين والعباسيين ، فإن الأباضيين ظلوا مسلمين أقوياء الإيمان منذ

عهد عبد وجيفر ، ولم يخرجوا أبدا عن العقيدة الإسلامية .

وإذا كان هناك محل لاتهامهم ، فهو إتهامهم بالتشدد في إيمانهم ، وهذا هو ما اتهمهم به أخيرا مؤلفون عديدون . أما كيف يمكن أن يكونوا هراطقة ومؤمنين شديدي التمسك باسلامهم ، فهذا مالا يمكن أن يكون منطقيا .

والمذهب الأباضي هو من أقل المذاهب التي تلقى فهما في العالم الإسلامي ، ولما كانت غالبيتهم يقيمون في عمان ، فإن من الأجدر بنا أن نحاول تفسير تعاليم هذا المذهب ، وما يمثله بالنسبة للإخوة المسلمين . وبالنسبة لغير المسلمين من المهتمين بهذا الأمر ، وهدفنا الوحيد من ذلك هو أننا نريد أن نبدد سحب سوء الفهم التي تخيِّم فوق الأباضية .

وبصرف النظر عن أي خلافات تكون قد قامت بين المسلمين وبعضهم في الماضي ، فإن العالم الإسلامي اليوم يعمل من أجل تضامن شعوبه ، ويجب أن تكون الخلافات في التفسير دافعا أكثر منها عائقا ، كما يجب أن تسود مجتمعاتنا روح الحج ، وهي روح ذلك اليوم الذي يلتقي فيه مالا يقل عن مليون مسلم سنويا ، يلبون جميعا نداء الخالق في صوت واحد «لبيك اللهم لبيك» .

وقد قيل إن الأباضيين فئة من الخوارج ، ولكن الدراسة الدقيقة لابد وأن توضح أن الشيء الوحيد الذي يربط الأباضيين بالخوارج هو رفضهم المشترك للتحكيم . وبخلاف ذلك فإن الأباضيين لا يقبلون وصفهم بأنهم خوارج حسب المفهوم الشائع

لهذه الكلمة .

وفي الماضي كانت كلمة خوارج تستخدم ، إشارة الى هؤلاء المسلمين الذين خرجوا للقتال في سبيل الله ، ولكن معناها تحول تدريجيا الى هذا المعنى المشوَّه لتصبح وصمة وهذه الوصمة هي التي يرفضها الأباضيون ، والخلاف الرئيسي في التفسير بين الأباضيين والخوارج هو الذي قدمه بوضوح الشيخ ابو اسحق ابراهيم الجزيري والشيخ عبدالله بن حميد السالمي ، والشيخ سالم بن حمد بن سليمان الحارثي .

ويمكن العثور على ذلك في كتب «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان» و«العقود الفضية في أصول الأباضية» ، كما نشر تفسير مختصر في كتاب «كتاب الوضع» للشيخ أبي زكريا يحيى بن أبي الخير الجناني من نفوسا في ليبيا .

والدخول في تفصيلات هذه الخلافات سوف يأخذ من وقتنا اكثر مما هو متاح ، ويمكن لمن يهمه متابعة هذه المسألة ، الرجوع إلى الكتب المشار اليها ، والتي أستطيع أن أؤكد أنها ستزوده بغذاء وفير للفكر .

وقد يقال إن الخلافات جوهرية وفلسفية وانها أساسا في مجال التفسيرات ، ومن هذه الخلافات في التفسيرات نشأ عدد من الخلافات الأخرى المترتبة عليها ، في مجال تطبيق النظريات المفسرة .

ولا أنوي الخوض في مناقشة حول الخلافات بين المسلمين ،

وكل ما أبغيه هو توضيح موقف الأباضية في مواجهة الخوارج بدون أي محاولة لإصدار أحكام ، لأن الحكم في مثل هذه الأمور لله وحده .

وفي فترة حكم الأمويين أصبحت البصرة مركزا رئيسيا للديانة الإسلامية ، وإذا كان يحق الافتراض بأن الأباضية كانت قد ولدت كمذهب ، فإنه يحق أيضا الافتراض بأن ولادتها قد تمت في البصرة ، وإذا سلمنا بأن الأباضية ولدت في البصرة ، فلا بد وأن نسرع بالاشارة الى أن العمل بها قد تم في المدينة ، ولدينا مثل يقول «باض العلم في المدينة ، وفرخ في البصرة ، وطار إلى عمان» .

وعندئذ قد يقول قائل إن الأباضية في عمان هي قديمة قدم الإسلام نفسه ، ويقول السالمي إن الأباضية ملتصقة بالعقيدة الأصلية وأنها لم تغير شيئا .

وهذا هو سبب وصف الأباضيين في عمان بأنهم متشددون في عقيدتهم ورافضون للتغيير ، وهو ما أرجعه بعض الكتاب الغربيين إلى عدم التفتح على الفنون والأفكار الحديثة لدى شعب عمان ، وتلك فكرة خاطئة نسفتها التطورات الأخيرة .

ولنحاول الآن أن نتخيل كيف «طار طائر المعرفة الإسلامية إلى عمان» وهناك ما يشير الى الروابط القديمة بين المدينة وعمان ، وكيف شرب شعب عمان من منهل الإسلام ومن مصدره الأساسي .

فبعد عمرو بن العاص استمر العمانيون على صلة مستمرة بالصحابة ، وتعلموا منهم الكثير عن الإسلام ، ومن خلال هذه الصلة برز فقيه شهير اسمه جابر بن زيد ، ولد بقرية صغيرة تسمى «فرق» قرب نزوى .

ويقال إن تاريخ مولده يتراوح بين العام ١٨ والعام ٢١ بعد الهجرة ، خلال فترة خلافة عمر بن الخطاب ، ويمكن القول بأن جابر هو حجر الأساس للأباضية . وقد أمضى طفولته في مسقط رأسه ، وأظهر رغبة واضحة في التعلم . وقد درس القرآن وهو صغير ، وتبحر بعمق في الفقه ، وكان تعطشه للعلم لا يروى . . وغادر عمان وذهب الى البصرة ، التي سبق أن أشرنا إلى انها كانت مركزا عظيما للعلم في ذلك الحين .

وأمضى بقية حياته بين البصرة والمدينة بشكل جعله على صلة بأكبر فقهاء المسلمين حينذاك ، واستوعب منهم كل ما أمكنه استيعابه من تعاليم العقيدة الإسلامية من كافة جوانبها .

ولقد نسب إليه قوله انه أدرك سبعين من الذين شاركوا في موقعة بدر ضمن جنود النبي ، وأنه تعلم منهم كل ما كان ممكنا أن يعلموه إياه ، باستثناء ابن عباس الذي وصفه «بالبحر» ، وقد تعلم منه الكثير ، وكذلك من السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أبي هريرة ، وأنس بن مالك ، وأبي سعيد الخدري وسيدنا علي بن ابي طالب ، ومعاوية وآخرين كثيرين غيرهم .

وقد ورد أن ابن عباس قد قال للناس «اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه» .

وعندما أشار ابن عباس إلى أهل العراق في ذلك الوقت ، قال : «عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا ومعهم جابر بن زيد ؟» .

وكان ذلك في وقت وجود جابر بالبصرة ، يشرح العقيدة الإسلامية كما تلقاها من معلميه الأصليين .

وقد وصل به الأمر أخيرا إلى أن يصبح هو نفسه معلما في البصرة ، وأن يكون له أتباع عديدون ، أصبح عدد منهم فقهاء ، ولقد نهل من علمه أباضيو عمان ، وأباضيو أقطار أخرى كثيرة مثل أقطار شمال افريقيا ، ويحتاج الأمر أن نشير إلى قلة فقط من هؤلاء منهم مثلا عبدالله بن أباض ، ومرداس بن حدير ، اللذان كانا من معاصريه في البصرة ، وأبو عبيدة مسلم بن ابي كريمة ، وكلهم من فقهاء الأباضية .

وهؤلاء تبعهم دارسون آخرون ، من تلامذة تلاميذ جابر بن زيد ، وبينهم شخص يستحق تنويه خاص ، هو الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي الأزدي ، الذي أتم الكتاب الشهير «الجامع الصحيح» ، وسلسلة الأقوال المنشورة في هذا الكتاب هي ما يشار إليه بالثلاثية . وقد اعتمد الربيع بن حبيب أساسا على ابي عبيدة ، وجابر بن زيد ، وعبدالله بن عباس ، والثلاثة معروفون بأمانتهم التي لا تقبل الشك .

وقد نشر السالمي شرحا لهذا الكتاب الذي صدر في أربعة أجزاء . وقد كتب عز الدين التنوخي - وهو سني من دمشق - مقدمة لكتاب السالمي «شرح الجامع الصحيح» قال فيها إن ثلاثية الربيع بن حبيب الأزدي ، وأحاديثها في مسنده من أصحها رواية وأعلاها سندا، ورجال سلسلته الثلاثية الحلقات هم أبوعبيدة التميمي وجابر بن زيد الأزدي والبحر عبدالله بن عباس ، شيخ جابر وغيره من الصحابة وكلهم مشهورون بالحفظ والضبط والأمانة والصيانة .

وكان الربيع بن حبيب - نفسه - تلميذا لأبي عبيدة ضمن مجموعة أخرى من تلاميذه منهم أبو الخطاب المعافري ، وعبدالرحمن بن رستم ، وعبدالله بن يحيى الكندي ، والاثنان الأولان هما من أئمة الأباضية في افريقيا ، والكندي من أئمتهم في اليمن ، وهناك الى الآن مراكز للأباضية في نفوسا وميزاب في ليبيا والجزائر .

ولقد قال التنوخي وهو يشير الى الشرح الذي كتبه السالمي ، انه واحد من الفقهاء العمانيين الذين كتبوا كتبا عديدة ، ولا بد انه كان غزير الثقافة وحاد الذكاء ، بحيث استطاع وضع هذا العدد من الكتب ، خاصة وأنه توفي قبل بلوغه سن الخمسين ، وأنه كان ضريرا منذ طفولته ، وقد أورد التنوخي في مقدمته ذكر سبعة عشر كتابا للسالمي .

وعندما تعمق التنوخي في شرح السالمي ، فإنه تأثر للغاية

بعلمه الواسع ، ووضوحه ، وقوة أسلوبه ، كما أثرت فيه أيضا موضوعية السالمي ، كما ان السالمي غير متعصب ، وانه كان يرجع الى ما كتب من خارج اطار مذهبه اذا وجد الحق هناك . وقد كان يضع الحق قبل الناحية المذهبية .

ومن كل ذلك يمكننا ان نستخلص أن المذهب الأباضي أقدم من اسمه ، لأنه يشتق اسمه من عبدالله بن أباض بن تميم التميمي الذي شب اثناء حكم معاوية بن ابي سفيان ، وعاش الى وقت عبدالملك بن مروان ، وكان معلما كبيرا ومسلما شديد الايمان ، لم يتهاون في عقيدته او يسمح لنفسه بأن تغرقه المغريات الدنيوية .

وكانت عقيدته راسخة ، ولم يعرف الخوف الا من الله ، ولم يتردد عن قول الحق او اللجوء الى القرآن ، وإلى سنة النبي ، للحفاظ على نقاء الإسلام .

وتعتبر رسالة التأنيب التي وجهها الى عبدالملك بن مروان ، والتي تعتبر طويلة الى درجة لا يتناسب مجال هذه المحاضرة للحديث فيها ، تعتبر دليلا كافيا على ذكائه ، وحميته الدينية .

وبايجاز يمكن القول ان هناك جذورا للأباضية ، ذلك المذهب الذي يلتزم به غالبية شعب عمان حتى هذه الأيام ، هؤلاء الناس الذين لا يسعون الا الى عبادة خالقهم بما يتفق مع كتابه المقدس ، وسنة رسوله ، هؤلاء الناس الذين يسابرون العصر مع المحافظة على قدسية عقيدتهم ، هؤلاء الناس الذين يعتبرون

كل المسلمين إخوة لهم في الاسلام ، ويعاملون أصحاب العقائد الأخرى باحترام .

وإن تاريخ الشعب العماني - رغم خلافاته ومنازعاته الداخلية في الماضي - هو تاريخ شعب قد مد يد الصداقة للجميع باستثناء الذين حاولوا ان يسلبوه سيادته ، أو الذين حاولوا أن يفرضوا عليه أفكارا مناقضة لعقيدته ، كما بلغت اليه من رسول الله عن طريق أتباعه .

ولم يحدث أن كانت العقيدة الاسلامية أو المذهب الأباضي حائلا دون التعاون الدولي أو التقدم التكنولوجي ، وتشهد على ذلك المعاهدات التي وقعها الحكام المسلمون الأباضيون مع الدول الأوروبية على مر التاريخ .

كما أن المبادرة التي اتخذها السيد سعيد بن سلطان بايفاده أول مبعوث عربي إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٠م ، وإلى الملكة فيكتوريا عام ١٨٤٢م ، هي دليل واضح على بعد نظر الحكام العمانيين ، ومدى اهتمامهم باقامة علاقات طيبة خارج الإطار المباشر لمنطقتهم ، وتشجيعهم للصداقة مع شعوب أكثر البلاد بعدا عنهم .

ولم يعرف المذهب الأباضي التعصب أو المغالاة . وهم لا يؤمنون بالعدوان ضد الذين يتبعون طريقا آخر .

الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن إمامنا ، والسنة طريقنا ، والإسلام ديننا ، ونحن نؤمن بالأمر بالمعروف وإتيانه ، والنهي عن المنكر واجتنابه .

رقم الإيـداع : ١٧٨ / ٩٤